شخصية الرسول ﷺ في شعر مدرسة المدينة المنورة

أ. د. مي يوسف خليف
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة القاهرة

شخصية الممدوح قبل الإسلام:

يُعد فن المدح من أقدم موضوعات الشعر العربي وأكثرها شيوعًا وذيوعًا وانتشارًا، خاصة ما يتفرع عنه من موضوعات على سبيل التوازي مثل الفخر والرثاء، أو على سبيل التناقض مثل فن الهجاء. وقد شغل النقد القديم ببناء قصيدة المدح على نحو ما صاغه ابن قتيبة في كتاب (الشعر والشعراء) من وقوف مُقصد القصيدة عند المقدمات، ثم الرحلة، ثم الموضوع، ثم خواتيم القصائد وكأنما قصر ابن قتيبة بناء القصيدة على فن المدح على النحو الذي يفهم تحديدًا من تعليله للمقدمة بتمهيد المتلقي نفسيًا، ثم الرحلة لإيجاب حقوق العطاء وذمامة التأميل، ثم الخاتمة بوصفها آخر ما يبقى في ذاكرة المتلقي[١]،

(١) ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م، ص٧٦-٧٧؛ ولمزيد من التفاصيل ينظر كتابنا (**مصادر التراث الأدبي والنقدي والبلاغي**).

وكأنما أغفل ابن قتيبة أو أضعف من دور المبدع الحقيقي في نسيج قصيدة المدح.

وحاول نقاد آخرون على طريقة ثعلب في قواعد الشعر، وأبي هلال العسكري في ديوان المعاني، وابن قتيبة في المعاني الكبير أن يقفوا عند صورة الممدوح كما دار حولها الشعر العربي القديم، فبدت مبنية بنيات متقاربة على استعراض صفات الكرم والشجاعة، وما يتفرع عنهما في السلم والحرب من استقبال الضيفان وكثرة القِرى وغزارة العطاء وشدة البأس ومنازلة الأبطال، مع التوسع في تحديد حالة العطاء والمغالاة في تصويره بالبحر والغيث ونحوهما، وكذلك ما يتفرع عن الشجاعة من الجسارة والفروسية ونبل الأخلاق مع الأسرى وحتى الأعداء، مع تميُّز الشجاع بالخبرة والرزانة والعقل والحكمة والتأنِّي وغيرها من صفات تنتهي إلى ضرورة انتصاره على خصومه، ليدور الشعر بعد ذلك حول صفات الفروسية وفي ذلك حماية القبيلة، والذود عن العِرض والشرف وحماية الظعينة ونجدة المستغيث، وإغاثة الملهوف، وفك أسر العاني، وإنقاذ المستنبح، إلى غيرها من صفات تتماس مع النظام القبلي ليبقى مشهد شيخ القبيلة هو النموذج الأمثل الذي طالما تبارى حول رسمه شعراء المديح المتكسب[٢].

(٢) تراجع في هذا السياق دراسات متعددة حول فن المدح بدءًا من مقالات الأستاذ أحمد أمين في مجلة (الرسالة) حول جناية المدح على الأدب العربي إلى ردود الدكتور زكي مبارك في مقالاته حول جناية أحمد أمين على الأدب العربي، إلى دراسة درويش الجندي =

ولم يكن هذا هو النموذج الأوحد في الشعر الجاهلي، وإن كان الغالب على شعراء المرحلة، ولكن نفرًا من الشعراء قد تجاوز ذلك المستوى حين شغله الهم القبلي حول قضايا الحرب والقتال، فسبق جيله بمطلب الصلح القبلي والمناداة بالسلام ومدح دعاة السلام والمبشرين به على غرار ما فعله زهير بن أبي سلمى مع هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أوقفا نزيف الدم بين عبس وذبيان لسنوات طوال(٣).

كما انصرف فريق من شعراء الجاهلية إلى مدح أمراء الإمارات المجاورة بحكم زيارتهم لها على طريقة مَنْ مدح الغساسنة مثل حسان بن ثابت في الجاهلية قبل البعثة المحمدية - بالطبع - والنابغة الذبياني في مدحه واعتذاره للنعمان بن المنذر، بما يعني أن فضاءات المدح في الجاهلية قد صاغت صورة الممدوح بين نمط من ثلاثة:

١ - شيخ القبيلة بقوته وشجاعته وحكمته وكرمه وفروسيته وموقعه الرئاسي بين أبنائها ودوره في حماية القبيلة والذود عن حماها.

٢ - دعاة السلام بما لهم من دور فاعل في تجاوز فكر الحرب والقتال الذي اعتاده المجتمع الجاهلي في خضم أيام العرب وما بين القبائل من صراعات.

= حول ظاهرة التكسب وأثرها على الشعر العربي، ثم دراسة وهب رومية حول قصيدة المدح الأموية بين الإحياء والتجديد، ودراسة عبدالله إسماعيل حول قصيدة المدح في العصر العباسي الأول، ثم دراسة عبدالله التطاوي حول قصيدة المدح بين البحتري وابن المعتز.

(٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتاب **القصيدة الجاهلية في المفضليات للباحثة**، وكذا كتاب **ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات**.

٣ - أمراء الإمارات المجاورة بما تمتعوا به من صفات القوة والشهرة التي جعل بها النابغة الذبياني النعمان بن المنذر شمسًا وبقية الملوك كواكب تتضاءل حال ظهورها - على سبيل المثال -.

واتخذ الشعراء من هذه النماذج مشاهد موازية أو مناقضة تقاس على أساس منها شخصيات المرثي في باب الرثاء، أو شخصية الشاعر نفسه في باب الفخر، أو شخصية المهجو بسالبها في باب الهجاء الفردي، أو الهجاء القبلي على السواء.

بدايات التحول في الرؤية والموقف:

ومع إشراقة الدين الجديد على أرض الجزيرة العربية، ومع ظهور الصادق الأمين ﷺ الذي لم يسجد لوثن مجانبًا طريقة قومه؛ بدأت رحلة الانتقال حول رسم أبعاد شخصية الممدوح ﷺ بعد أن صدع بالدعوة وأنذر عشيرته الأقربين، وبدأ أداء الدور الأكبر في القيام بدور البشير النذير للناس جميعًا. وهنا بدأت قسمات الشخصية في التجلي عبر مهامها، ومنها :

١ - شخصية النبي الرسول الموحى إليه، والمكلف بأداء الرسالة والقدوة للمسلمين في التقشف والتقوى والورع والعبادة حتى صار الزاهد الأول للأمة الوليدة.

٢ - شخصية حاكم الأمة وراعيها ومؤسس الدولة، حيث نقلها من القبلية إلى الأممية، وبدأ يراسل ملوك العالم للدخول في دين الإسلام تأكيدًا على عالمية الدعوة.

٣ - شخصية القائد المحارب الذي يواجه عنف الجاهلية وسطوة الظلم القبلي وأصوات الباطل والحمق السفه والنفاق والطيش، ويجاهد في الله حق جهاده؛ لينشر صحيح دينه ويذيع شريعته الغراء التي أعادت تشكيل حياة العرب على أسس قويمة وضوابط حكيمة.

٤ - شخصية المُعلِّم المُربي، وقد أخذ على عاتقه تربية أجيال الصحابة في مدرسة النبوة، حيث تأسست العلاقات الإنسانية على تبنِّي قيم الدين الحنيف بكل صورها من التقوى والتسامح والتصالح مع النفس والمجتمع.

٥ - شخصية الخطيب الداعية الذي أوتي جوامع الكلم، وهو النبي الأمي مع شخصية الزاهد الأسوة الحسنة لكل من حوله وقدوة السلوك للأمة كلها.

من هنا كانت مبررات حدوث ذلك التحول في تصوير شخصية الرسول ﷺ، وقد جمع في شخصه الكريم كل هذه الملامح وتلك القسمات التي بدا طبيعيًا لشعراء المدح أن يحاروا في تصنيفه بين فئات الممدوحين التي جمع بينها جميعًا فتمتع بأعلى ما فيها وصولاً إلى صفات الكمال الذي لم يمنح لغيره من الممدوحين بحال.

من هنا ظهرت خصوصية شخصية الممدوح في سياق هذا الإطار الكامل غير المنطقي بما فيه من جمال الصفات الخَلْقية والخُلُقية وتفرُّدها؛ الأمر الذي تجلى في صور الشعراء ومواقفهم المدحية التي ظهر فيها الرسول ﷺ، كما زكاه ربُّه وأدبه فأحسن تأديبه، وجعله على خُلُق عظيم

وبالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، وجعله وأصحابه أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولم يكن فظًا ولا غليظ القلب، وإلا انفض الناس من حوله، كما جعله الأسوة الحسنة للبشرية كلها في حسن الخلق تواضعًا وحياءً وأدبًا وصبرًا وجَلَدًا.. ألم يكن يؤسس أمة تنشر دين ربها بالحق والحكمة والموعظة وتصدق بكل رسالاته وكتبه ورُسُله؟

ومن هنا - أيضًا - كانت مبررات الشعراء لأن يقفوا طويلاً عند الطبيعة النوعية لشخصية الرسول الراعي للأمة وحامي مصالحها بما يشيعه من العدل والوفاء بالعهود والمواثيق ونشر مكارم الأخلاق.

مع إبداع شعراء المرحلة حول صورة الممدوح ﷺ:

ولعل شعراء مدرسة المدينة المنورة وجدوا المادة الشعرية ميسورة لديهم، والرسول ﷺ يعيش بين ظهرانيهم، ويتحرك بينهم، ويتفاعل معهم، فالمسلمون يتساءلون ويجيبهم وحيُ السماء حيث يبلغه الرسول ﷺ وقد جاءهم بكتاب مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم، فبدا العطاء ثريًا، والصورة جديدة بما تمتعت به من صفات الجمال والكمال التي بدا طبيعيًا أن تستوقف الشعراء والمادحين، لاسيما مع اختلاف الدوافع بعيدًا عن محنة التكسب وأزمة الاحتراف، حيث أصبح المادح يعيش (حالة) من الصدق الأخلاقي والتاريخي، فلم يزيف صفات الممدوح ﷺ ولم يبالغ فيها، وإنما جمع بين أفضل ما ردده من الموروث الجاهلي وثوابت صفات الممدوحين من الشجاعة والبطولة

والفروسية والكرم والعطاء وبين المستحدث من قيم الرسالة التي جاءت لإتمام مكارم الأخلاق من منطلق ما نص عليها الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٤)، وغيرها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

إلى غير ذلك من كثير مثَّل مادة إسلامية عبر المعجم الجديد أمام شعراء المرحلة حتى تميَّزوا من خلالها حين تجاوزوا عطاء الشاعر الجاهلي، وعَبَروا إلى فكر جديد مختلف كثيرًا عن صورة شيخ القبيلة الذي استوقف المادحين القدماء باعتباره النموذج الأمثل للشاعر الجاهلي.

ولعل الموقف هنا يحتمل عدم الفصل القاطع بين موضوعات الشعر التي رسمت شخصية المصطفى ﷺ حيث تداخل الأمر بين ما قيل في باب المدح، وما ذُكر في باب الرثاء، وكذا ما ورد في مهاجاة خصومه ﷺ أو الانتصاف له منهم على طريقة حسان بن ثابت في همزيته وهو يرد على أبي سفيان بن الحارث:

هجوتَ مباركًا بَرًّا حنيفًا أمينَ الله شيمتُه الوفاءُ
أتهجوه ولست له بكفءٍ؟ فشرُّكما لخيركما الفداء

حيث يرصِّع الشاعر مجموعة من الصفات الدينية يكثفها في سياق بيت واحد معيارها مشهد : المبارك، البر، الحنيف،

(٤) النساء، الآية ١٧٤.
(٥) التوبة، الآية ١٢٨.

الوفي، أمين الله، وهو ما يتسق مع دافع المادح غير المتكسب، والذي لا ينتظر من ممدوحه جزاء ولا شكورًا، حيث يرصد دافعه في القصيدة نفسها مرتين : الأولى : حين ينتظر الجزاء من الله وحده:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعندَ الله في ذاك الجزاء

والثانية حين يحقر كل ما يقوله خصوم الدعوة:

فمَنْ يهجُو رسولَ منكم ويمدحُه وينصُرْه سَواء

وحين يفاخر بقسوة كلامه ولسانه في مهاجاة خصوم ممدوحه:

لساني صارِمٌ لا عيبَ فَيهِ وبَحْرِي لا تكدره الدِّلاءُ

وجدير في باب المدح عند حسان أن يكون الممدوح هو السيد والعبد في آن واحد في ظل المعايير الجديدة التي تتضمن شرف العبودية لله وحده لا شريك له:

وقال الله: قد أرسلتُ عبدًا يقولُ الحقَّ إن نفعَ البلاءُ
شهِدتُ به فقومُوا صدِّقوه فقلتُم: لا نقومُ ولا نشاء!

ولكنه العبد الهادي إلى سواء السبيل، والمتفرد بين قومه بوحي الله وكتابه الكريم بمنطق النابغة الجعدي:

أتيتُ رسول الله إذ جاءَ بالهدى
ويتلُو كتابًا كالمَجَّرة نيِّرا

أُقيمُ على التقوى وأرْضَى بفعلها
وكنتُ من النار المَخُوفة أحذرا[٦]

فالنبي الممدوح -هنا- هو القدوة والأسوة والمثل بحكم ما جاء به من الهدى، والكتاب المنير، والتقوى والنور والحذر من النار والضلال. والنبي الممدوح هو القائد والموجِّه عند كعب ابن مالك الأنصاري، وهو بصدد الرد على ضرار بن الخطاب الفهري في يوم الأحزاب:

وكان لنا النبيُّ وزيرَ صِدْق به نهدي البريةَ أجمعينا[٧]

ومن ثم كان تصويره للنصر الإلهي الذي تمتع به الممدوح ﷺ ليتلقى خصوم الدعوة درسًا لا ينسى:

ليعلم أهلُ مكة حيث ساروا وأحزابٌ أتَوْا متحزبينا
بأنَّ الله ليس له شريك وأن الله مولى المؤمنينا

وهو النور أو سيف الهدى الذي شرف به الله الأرض بمنطق كعب بن زهير وقد جاءه معتذرًا ومادحًا وتائبًا معًا:

إن الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به مهندٌ من سيوف الله مسلول
حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي نقمات قيله القِيلُ

(٦) **ديوان النابغة الجعدي**، ص٧٥.

(٧) **ديوان كعب بن مالك الأنصاري**، تحقيق: سامي مكي العاني، مطبعة النهضة، بغداد، (د.ت)، ص١٨٨.

وكذا كان مَنْ حوله من المهاجرين الذين أصفاهم كعب بشرف الهجرة:

في فتيةٍ من قريش قال قائلُهم
ببطن مكةَ لمَّا أسلمُوا: زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ
عند اللقاء ولا مِيلٌ معازيل
شم العرانين أبطالٌ لبوسهم
من نسيج داوود في الهيجا سرابيل
لا يقع الطعنُ إلاَّ في نحورهمُ
وما لهم عن حياض الموت تهليلُ

ومن هنا اختلطت صفات الممدوح مع صفات المرثي حال اتساق الدوافع وتلاقيها هنا أو هناك، وصار معيار الصدق واحدًا في الفنَّيْن معًا، فما كان بكاء حسان على فقد المصطفى ﷺ سوى صورة مكملة لمدائحه، ومطابقة لما ورد فيها من حميد الصفات وجميلها، حيث قال في مرثيته الدالية[٨]:

بها حجراتٌ كان ينزلُ وسطَها
من الله نورٌ يُستضاء ويُوقَدُ
فبوركتَ يا نُور الرسول وبُوركتْ
بلادٌ ثوى فيها الرشيدُ المُسدَّد

(٨) **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق: سيد حنفي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٤م، ص٧٤.

عـزيزٌ عليـه أن يـجـوروا عن الهدى
حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا
نـبـيٌ أتانا بـعـــد يأس وفـــتــــرةٍ
من الرُّسْلِ، والأوثانُ في الأرض تُعبَدُ
فـأمسى سـراجًا مـسـتنيـرًا وهـادياً
يلوحُ كـمـا لاح الصـقـيـلُ المُهندُ
وأنـذرنـا نـارًا وبـشَّـــــــر جـنـةً
وعلَّمَنا الإسـلامَ فـاللهَ نـحـمـدُ

حيث تبـدو ملامح الشـخصـيـة جديدة تمامًا اقـتـبـسـهـا الشـاعـر من واقـعـه وعـلاقـتـه بالممدوح ﷺ مسترشـدًا بما ورد من صفاته في آي الكتاب الحكيم الدالة على ما جاء به من النور والهداية والرشاد والسداد، ومنهجه في معالجة أمور المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة والرشاد والهداية والإنذار والتوجيه والتبشير من خلال دين التوحيد الذي أنهى سلطان الشرك والوثنية إلى جانب ما ثقفه الشاعر نفسه واستدعاه من المعجم الإسلامي الجديد.

وكذا كانت صورة الرسول ﷺ حتى في أصعب المواقف على أنفس شعراء الاعتذار ممن أساؤوا إليه وإلى الرسالة، وتمادَوْا في غيِّهم بمحاولة ردة غيرهم على غرار ما صنعه كعب بن زهير، حين أراد أن يصرف أخاه بُجَيْرًا عن الإسلام، وأهدر الرسول دمه، حتى إذا جاء معتذرًا كشف عن معرفته بشخصية الرسول من حيث العفو عند المقدرة بما دعاه

وشجعه على الإقدام على الاعتذار بما يجعل من حقنا أن نقارن - مثلاً - بين موقف الاعتذار لدى النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر في قوله المعروف:

فإنكَ كالليل الذي هو مُدْرِكي
وإن خِلْتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ

ولنا أن نتخيَّل حجم المخاوف وطبيعة الفزع الذي أصاب الشاعر، فكان كالليل الحالك من حوله في كل مكان، بينما جاء كعب وقد علم عن الرسول ﷺ بما يطمئن نفسه ويهدئ من روعه.. ألم يسمع عن شخصية الرسول بما وصف به قومه قبل البعثة بأنه الصادق الأمين؟ ومن ثم علم شيئًا عن حكمته ورزانته وهدوئه وعفوه منذ قصة الحجر الأسود وما تفتقت عنه عبقريته ﷺ من إرضاء كل القبائل من منظور ترسيخ مفاهيم رموز العدل التي طرحها من خلال ثوبه، ثم كان ما علمه كعب عن الإسلام ورسوله من مسألة الصفح والعفو عند المقدرة ومن ثم كان تصوُّره الذي شجَّعه على مبادرة الاعتذار:

أُنبئتُ أن رسول الله أوعدَني والعفوُ عند رسول الله مأمول

ومن ثم استباح الشاعر لنفسه استخدام أفعال الأمر والنهي التي لا تستساغ - أساسًا - في باب المديح، فما بالنا بالاعتذار، ولكنه اتكأ على ما يشفع له مرة في استخدام اسم فعل الأمر في قوله:

مـهـلاً هداكَ الذي أعطاك نافلةَ الـ
قُـرآن فـيـه مـواعـيظٌ وتفـصـيلُ

وأخرى في استخدام فعل النهي، وقد حاول تبرئة نفسه مما هو منسوب إليه:

لا تـأخُـذَنِّي بأقـوال الوشـاة ولم
أذنبْ، وإن كـثُـرت فيَّ الأقـاويلُ

وإن ظل موقف كعب مغلفًا باطمئنانه إلى البعد الديني لشخصية الرسول ﷺ، وكذا لطبيعة الدعوة والإيمان بقدر الله وقضائه في قوله في القصيدة نفسها:

فـقلت: خَلُّوا سَـبـيلي لا أبًا لكمُ
فكلُّ مـا قـدَّر الرحـمنُ مـفـعـول[٩]

ومع إسلام كعب بن زهير يمكن ضم شعره إلى شعراء مدرسة المدينة المنورة، وإن جاء متأخرًا إلا أنه استشعر قوة المسلمين من خلال قوة شخصية الرسول ﷺ وقوة أنصاره من حوله في مثل قوله[١٠]:

وفينا رسولُ الله نتبعُ أمره إذا قال فينا القولَ لا نتطلعُ
تدلَّى عليه الرُّوحُ من عند ربِّه يُنزَّل من جوِّ السماء ويُرفع
وقال رسولُ الله لمَّا بَدَوْا لنا إذا ما اشتهوا أنا نُطيع ونسمعُ
وقال رسولُ لما بدوا لنا ذَرُوا عنكمُ هولَ المنيَّات واطمعوا

(٩) **ديوان كعب بن زهير**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص١٩٣.
(١٠) نفسه، ص١٩٣.

حيث يصور شخصية الممدوح المُطاع من قومه، وقد آمنوا بكل ما جاء به على طريقة الصدِّيق - رضي الله عنه - حين صدَّقه في حديث الإسراء والمعراج الذي تجادل حوله نفرٌ من القوم، وازداد الإيمان واليقين من خلال وعيهم بجوهر الرسالة والرسول، ولعله يقارب ذلك الوجدان الشعبي والحس الجماهيري العام الذي قوبل به المصطفى ﷺ منذ قدومه إلى المدينة المنورة فكان خير ممدوح وكانوا خير مادحين، وكان أفضل ضيف حتى صُوِّر مقدمه الكريم بهذا الحب العارم والترحيب الجارف الذي عبَّر عنه أهل المدينة:

طلع البدرُ علينا من ثنيَّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوثُ فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبًا يا خير داع

ومن الطريف في مدائح الشعراء للرسول ﷺ ما امتد إلى تصوير شخصيات صحبه الكرام بحكم ما ثقفوه من مكارمه ﷺ وخاصة في تصوير مواقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه بحكم قربه منه حتى في أحلك المواقف وأشدها صعوبة وتعقيدًا على غرار صحبته الكريمة للمصطفى ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة، فكان تصوير حسان له في رثائه من خلال ذلك الشرف الذي حظي به الصدِّيق رضي الله عنه حتى زكاه القرآن الكريم ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ**

لِلْيُسْرَىٰ﴾[١١]. وهو ما التقطه حسان ليقول في شخصه رضي الله عنه عبر صحبته للرسول ﷺ[١٢]:

الثـانيَ الثـانيَ المحـمـود سيـرتُه
وأولُ الناس منهم صـدَّقَ الـرُّسُـلا
وثانِيَ اثنين في الغار المنيف وقد
طافَ العـدوُّ به إذ صـعَّـد الجَبَـلا
وكـان حِبَّ رسـول الله قـد عَلِمـوا
من البــرية لم يعــدلْ به رجــلا

وهكذا حـدث التـدرُّج في باب المديح من المنظور الديني الذي بدأ من أمر الوحي والرسالة، إلى الرسول الهادي البشير، حتى امتد الأمـر إلى مدح أعضاء مدرسة الصحابة الكرام بحكم الاقـتـداء بمسلكه، وتعلُّم منهجـه، والسيـر على منواله حتى قال فيهم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"، فكان مدح الشعراء لأي من الصحابة هو مدح ضمني للعابد الأول والزاهد الأول ﷺ، وكذا كان مشهد المدح الجماعي للمهاجرين أو الأنصار انطلاقًا من تصوير مكانته ﷺ بحكم التأييد الإلهي الذي يتخذه الشاعر - أحيانًا - مادة في المدح للمسلمين، وفي هجاء أعدائهم على نهج كعب بن مالك الأنصاري في هجاء بني النضير وكعب بن الأشرف اليهودي، وهو يناقشهم فيما أوتوا من علم الكتاب، ويؤاخذهم على

(١١) سورة الليل، الآيات ٥، ٦، ٧.
(١٢) **ديوان حسان**، ص٢٩.

كفرهم ليجمع بين الهجاء ومادة المديح التي عرَّج فيها على شخص الرسول ﷺ:

وقد أُوتُوا معًا فَهْمًا وعلمًا
وجاءهَمُ من الله النذيرُ
نذيرٌ صادقٌ أدَّى كتابًا
وآياتٍ مبينةً تنيرُ
فمن يتبعْهُ يُهدَ لكل رشد
ومن يكفرْ به يُجْزَ الكفور
فلمَّا أُشربوا غدرًا وكُفرًا
وجدَّ بِهِمْ عن الحقِّ النفور
أرى اللهُ النبيَّ برأي صدق
وكان الله يحكمُ لا يجور
فأيَّدَه وسلَّطه عليهم
وكان نصيرَهُ نعم النصير(١٣)

وفي مقابل كثافة المشهد الديني في تصوير تجليات شخص الممدوح والمرثي ﷺ جاءت بعض المدائح جامعة بين الموروث الجاهلي والقيم الإسلامية الجديدة على النحو الذي صاغه كعب بن مالك الأنصاري في إحدى مراثيه حين جمع بين الموروث والمستحدث في مثل قوله(١٤):

(١٣) **ديوان كعب بن مالك**، ص١١٢.
(١٤) نفسه، ص١٧٣.

علىَ خيـر من حـملتْ ناقـةٌ　　وأتقى البـرية عند التـقى
على سيـدٍ مـاجـدٍ جـحفل　　وخـيـر الأنام وخـيـر اللُّهـا
لـه حـسـبٌ فـوق كل الأنا　　م من هـاشـم ذلـك المُـرتجـى
نخصُّ بما كـان من فـضله　　وكـان سـراجًا لنا في الدجى
وكــان بشـيـرًا لنا منذرًا　　ونورًا لنا ضـوؤه قـد أضـا
فـأنقـذنا الله في نُوره　　ونـجَّى برحـمـتـه مِنْ لظا

حيث يجمع بين الشخصية الدينية في التقوى والهداية والنور والبشير وبين الموروث من منطق السيادة والشجاعة والقوة وشرف الأنساب والأحساب مدخلاً من مداخل الفضل والتميُّز، وهو ما تتبلور منه مشاهد أخرى في تصوير الشاعر مسيرته ﷺ إلى الطائف ليقول كعب(١٥):

وأنَّا قـد أتيناهـم بزَحْف　　يحيطُ بسور حصنهم صُفُوفَا
رئيـسـهمُ النبيُّ وكـان صلبًا　　نقيَّ القلب مصطبرًا عزوفا
رشـيـدُ الأمـر ذو حكم وعلم　　وحلم لم يكن نزقًا خفـيـفـا
نطيع نبـيَّنا ونطيع ربّاً　　هو الرحـمن كـان بنا رؤوفـا

حيث يستعين الشاعر بترصيع الصفات الإسلامية التي تجسدت في شخص الرسول ﷺ من قوة شخصيته وشجاعته وصبره وجلده وعزوفه عن متاع الدنيا الزائل وما أوتيه من رشد وحكمة وعلم وحلم حتى زكاه ربه

(١٥) نفسه، ص٢٣٦.

- سبحانه وتعالى - بما أدبه به فأحسن تأديبه حتى صار على خلق عظيم.

ويعرج نفر من شعراء مدرسة المدينة المنورة على محاولة استقراء جوانب الشخصية المحمدية التي آثرت الجهاد في سبيل الله، لأداء دورها ونشر دعوة الإسلام، وعلَّمت كتائب الصحابة أسُس الجهاد، والصبر على المكاره في سبيل المبدأ والذود عن العقيدة والانتصار للقيمة، وطاعة الرسول القائد ﷺ حيث يقول كعب في هذا الاتجاه في يوم (خيبر) مصورًا حاله مجاهدًا مسلمًا يذود عن دينه(١٦):

يرى القتلَ مدحًا إن أصابَ شهادةً
من الله يرجُوها وفوزًا بأحمد
يذودُ ويحمي عن ذمار محمد
ويدفعُ عنه باللسان وباليد
وينصرهُ في كل أمر يريبه
يجود بنفس دون نفس محمد
يُصدق بالأنباء بالغيب مُخلصًا
يريد بذاك الفوزَ والعزَّ في غد

حيث برزت المعاني والقيم الجديدة التي تأصلت في نفوس شباب الإسلام من سعادتهم بالشهادة التي تقربهم من الفوز بجوار الرسول ﷺ في جنات الخلود فهم أقرب إلى شفاعته

(١٦) **ديوان كعب**، ص١٩٦.

وجواره من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا على حد تصوير الآيات القرآنية الكريمة.

وكذا ما كان من صورة الممدوح ﷺ داعية سلام إذا ما خلَّى القومُ بينه وبين الناس لنشر دعوته، ولم يأت جابيًا ولا كان جبارًا في الأرض، وإلا ما علَّم الصحابة صور التواضع النبوي الذي هدَّأ به روع الفارسي "هوَّن عليك يا رجل فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد" كما التزم ﷺ بنشر السلام بدءًا من تحية الإسلام، إلى عدم المبادأة بالعدوان، إلى الجنوح إلى السلم حتى مع الأعداء ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١٧) وهو ما يستدعيه كعب بن مالك في مسيرة الرسول ﷺ إلى الطائف حيث يقول كعب مؤرخًا لطبيعة الحدث ومسجلاً دلالاته على مسلك الرسول القائد ورفاقه:

فإن تلقوا إلينا السلم نقبل ونجعلكم لنا عضُدًا وريفا
وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر ولايكُ أمرنا رعشا ضعيفا

وهو المنهاج نفسه الذي سبقه إليه حسان حين وضع الخيارات السلمية أمام مشركي مكة في صلح الحديبية في همزيته:

فإما تعرضوا عنا اتمرنا وكان الفتحُ وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يُعِزُّ الله فيه من يشاء

(١٧) سورة الأنفال، الآية ٦١.

وهو يرسم الصورة المثلى للعلاقة بين الرسول ﷺ وقومه بما فيها من صيغ المودة وصور الرحمة في مقابل الشدة مع الكفار، وكأنما يستمد الشاعر من دلالة الآيات القرآنية الكريمة التي تشخص هذه الصور ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾[١٨] فإذا بكعب بن مالك يقول عن علاقتهم به كمسلمين:

وأعطيْنَا رســـول الله منَّا   مواثيقًا على حسن التصافي

فـجُـزْنَا بطنَ مكة وامـتنعنا   بتقوى الله والبيضِ الخفافِ

كما يصور رحمته ومودته ﷺ حتى في علاقته بالشاعر على المستوى الشخصي:

تعلَّمْ رســـولَ الله أنك مـــدركي

وأن وعـيـدًا منك كالأخـذ باليـد

وهو يتسع بدائرة المدح من الرسول إلى الصحابة ممن هاجروا معه ﷺ، فكان لهم نصيب من ثناء كعب بن زهير حين قال في لاميته الاعتذارية[١٩]:

في فتيةٍ من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لما أسلمـــوا: زولوا

زالوا فـمـا زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ

عند اللقـاء ولا مـيلٌ مـعـازيل

(١٨) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(١٩) **ديوان كعب**، ص٢٥.

لا يقعُ الطعنُ إلاَّ في نحـــورهمُ
وما لهم عن حياض الموت تهليل

فما كانت شجاعة القوم إلاَّ صورة من شجاعة القائد القدوة، وهم يطيعون أوامره ويستجيبون لتعاليمه وتوجيهاته، ومن ثم كانت صفاتهم من صفاته، وأخلاقياتهم من مشارب أخلاقيات بيت النبوَّة التي تربوا عليها بين الشجاعة والشموخ والوفاء بالذمم واحترام العهود، والتنافس في عمل الخير على نحو قول كعب بن مالك(٢٠):

همُ الأُسدُ عند البأس والحُشد في القرى
وهُمْ عند عـقـدِ الجـار يوفُـون بالذِّمَمْ
فكم فـيـهمُ من سـيِّـد مـتـوسِّع
ومن فـاعل للخـيـر إن همَّ أوْ عَـزَمْ

وكذا جاءت مدائح الشعراء للأنصار صورة من الثناء على شخص الرسول ﷺ، وقد حاز حسان بن ثابت الأنصاري قصب السبق في هذا المضمار على غرار ما عرضه في همزيته في مدح الرسول ﷺ والرد على أبي سفيان بن الحارث وهجاء مشركي مكة والفخر بالأنصار في آن:

وقال اللهُ : قد أرسلتُ جندًا هُمُ الأنصارُ عُرضتُها اللقاء
لنا في كل يَوم من مَـعَـد سِـبـاءٌ أو قـتـال أو هجـاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضربُ حين تختلط الدماء

(٢٠) نفسه، ص١١٢.

فهو التركيز - إذن - على شجاعة المسلمين وفروسية جنودهم وقدراتهم القتالية في الحروب، وما يوازيها من حروب لسانية ينتصرون فيها بفصاحة شعرائهم، وبيان بلغائهم، سواء على هذا المستوى الجمعي المطروح في هذا الشاهد، أو المستوى الفردي الذي خص به حسان نفسه متوعدًا أبا سفيان وأمثاله:

لساني صارمٌ لا عيبَ فيه   وبَحْري لا تُكدِّره الدلاءُ

وشارك عبدالله بن رواحة في صناعة هذا المشهد المدحي وصياغته متأثرًا بالمعجم الإسلامي الجديد، حيث جمع بين مدحه للرسول ﷺ وبين هجائه بعض أبناء قريش من مشركي مكة في مثل قوله:

إني تفرستُ فيكَ الخيرَ أعرفُهُ
والله يعلمُ أني خانني البصرُ
أنت النبيُّ ومن يُحرم شفاعتُه
يوم الحساب فقد أزْرَى به القدر
فثبَّت الله ما أتَاك من حَسَن
تثبيت موسى ونصرًا كالذي نصروا
نجالدُ الناسَ عن عُرُض فنأسرهم
فينا النبيُّ وفينَا تنزلُ السور

حيث يرى كل الخير في شخص المصطفى ﷺ لتستوقفه شفاعته ﷺ على الحوض يوم الحساب وما وهبه به الله -

سبحانه - من العزة والمدد والتثبيت بما جعله دائم الانتصار على أعداء الإسلام بمدد دائم من الله - عز وجل -.

ومن الشفاعة وعلو المنزلة يصور ابن رواحة مجاهداته ﷺ في العبادة في مثل قوله[٢١]:

يبيتُ يُجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلتْ بالكافرين المضاجعُ
وأعلم علمًا ليس بالظن إنني
إلى الله محشورٌ هناك وراجع

وربما جاء المدح الضمني في تصوير شخصية الرسول ﷺ حتى في رثاء عمه حمزة بن عبدالمطلب الذي استشهد يوم أُحُد فكان مصاب الرسول فيه عظيمًا، ولولا الصبر والجلد والإيمان بقدر الله وقضائه لاختلف الأمر، يقول ابن رواحة في هذا السياق[٢٢]:

أُصيبَ المسلمون به جميعًا
هناك وقد أُصيب به الرسول
ألا يا هاشم الأخيار صَبْرًا
فكلٌّ فعالكم حَسنٌ جميل
رسول الله مصطبرٌ كريم
بأمر الله ينطقُ إذ يقول

(٢١) **ديوان عبدالله بن رواحة**، تحقيق: وليد قصاب، دار العلوم، الرياض، ص١٦٣.

(٢٢) نفسه، ص١٣٣.

حيث يصور ممدوحه حال تلقي المصائب الجسام التي ألقت بظلالها على المسلمين جميعًا وفي صدارتهم الرسول ﷺ الذي بدا صابرًا جلدًا كريمًا راضيًا بقضاء الله وقدره، وهو لا ينطق إلا بأمر الله عز وجل.

وهو المنطق الذي سار على منواله حسان حين جمع بين المدح الفردي والجماعي منذ خروج المسلمين في غزوة بدر حين يمدحه ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم جميعًا(٢٣):

مستشعرٌ حلَقَ الماذي يقدُمهم
جلد النحيزة ماضٍ غير رعديد
أعني الرسولَ فإن الله فضله
على البرية بالتقوى وبالجود
ماضٍ على الهول ركَّابٌ لما فعلوا
إذا الكُماةُ تحاموا في الصناديد
واف وماضٍ شهابٌ يستضاء به
بدرًا أضاء على كل الأماجيد
مباركٌ كضياء البدر صورتُه
ما قال كان قضاءً غير مردود
مستعصم بحبل غير منجذم
مستحكم من حبال الله ممدود

(٢٣) **ديوان حسان بن ثابت**، ص٤٥.

وربما كثف الشاعر من استدعائه للمعجم الإسلامي على طريقة حسان بن ثابت في رثائه الرسول ﷺ[٢٤]:

لقد غيَّبوا حِلْما وعلمًا ورحمة
عشيةَ علَّوه الثرى لا يوسد
عزيزٌ عليه أن يجورُوا عن الهدى
حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا

وقياسًا على صورة المدح في المطلق والعام وردت صور الحرب وبطولة فرسان الإسلام من الثبات في الميدان وعدم الإدبار في مثل قول كعب بن مالك الأنصاري[٢٥]:

ونحن أناسٌ لا نرى القتل سبةً
على كلِّ من يحمي الذمارَ ويمنع
ولكننا نَقلي الفرارَ ولا نرى الـ
ـفرارَ لمن يرجو العواقب ينفعُ
جلادٌ على ريب الحوادث لا نرى
على هالك عينًا لنا الدهر تدفع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحُش
ولا نحنُ من أظفارها نتوجع
شددنا بحول الله والنصر شدة
عليكم وأطراف الأسنة شُرَّع

(٢٤) **السيرة النبوية**، ٣١٧/٤.
(٢٥) **ديوان كعب بن مالك**، ص٦١.

حيث يصور جند الإسلام وقد اقتدوا بالقائد ﷺ في مواجهة الكفار وحماية الذمار وتجنب الإدبار والفرار إلى حيث يكون الجلاد والظفر والانتصار بحول الله وقوته، فالرسول القائد ﷺ وأصحابه وجنده فرسان شجعان لا يعرفون إدبارًا

ولا فرارًا فهم ماضون على كل الأهوال بما فضلهم به الله من التقوى والإيمان بالله وحرصهم على التمسك بحبل الله بما يمنحهم القوة والنصر على أعدائهم.

وما قيل في الحروب - وهو كثير - جاء ما ورد من شعر الدفاع عن الرسول ﷺ وذكر مآثر قومه وشرف نسبه، وأصالة أهله وذويه تحت راية الإسلام عبر قصيدة حسان المشهورة:

إن الذوائبَ من فِهرٍ وإخوتهم
قد بينوا سُنَّة للناس تُتبع
قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهم
أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا
ولا يضنُّون عن مولى بفضلهم
ولا يصيبهم في مطمع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم
في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
لا يطمعون ولا يُرديهم الطمَعُ

وصفوة القول حول صورة الممدوح المصطفى ﷺ: إن شخصية الرسول ﷺ قد رسمت بشكل متميز سمات المرحلة من المنظور الديني الذي يعكس إيقاع التحوُّل إلى مسيرة الأمة الجديدة في سلمها وحربها، مما تبارى فيه شعراء المدح والهجاء والرثاء في سياق تصويره، سواء على المستوى المباشر في شخصية الرسول نفسه، أو فيمن حوله من جيل الصحابة الذين وجدوا فيه القدوة والأسوة الحسنة من خلال بيت النبوة، وهو ما دار حوله شعراء المدينة المنورة على النحو الذي أبرزته تلك الشواهد الانتقائية التي تزدحم بها دواوين شعراء الفترة، وهي تحوي كثيرًا من العطاء المتدفق حول ملامح الشخصية من المنظور الديني والقيمي والأخلاقي في مختلف حالات الأمة بين حروبها وغزواتها وفي مساق علاقاتها بأبنائها وأعدائها على السواء.

كما يظل شعراء عصر المبعث قادرين على صناعة (حالة) مدحية جديدة في دوافعها، وجدتها في أدوات التصوير وتجليات الشخصية المحمدية التي علمت البشرية كلها أفضل المسالك في ضبط أخلاق الإنسان في علاقته بربه - سبحانه - وفي علاقته بأخيه الإنسان من منظور الهداية وإبلاغ الوحي وأداء الرسالة، وصورة الحاكم التقي الورع المتقشف الزاهد، ومشهد القائد الشجاع صاحب المبدأ والقيمة، والمعلم المربِّي لأجيال الصحابة، والخطيب الداعية الذي أُوتي جوامع الكلم والصدق الأخلاقي الهادي إلى سواء السبيل من خلال القدوة الحسنة والكتاب المنير، ومنهجه في

معالجة أمور المسلمين بالحكمة والموعظة الطيبة، ونشر العدل والمساواة، مع قوة شخصية القائد المطاع بين قومه وجنده ليظل مجاهدًا وقت الحروب مسالمًا في غيرها متواضعًا بين أتباعه رحيمًا بهم بقدر ما زكاه ربه وأحسن تأديبه حتى صار قرآنًا يمشي على الأرض، وهو شرف لا يدانيه شرف لغيره من الممدوحين على الإطلاق.

وبذا استطاع شعراء مدرسة المدينة المنورة أن يجمعوا في شخص الممدوح والمرثي ﷺ صور الكمال الأخلاقي الذي تمتع به فكان مصدر إشعاع للبشرية كلها، وهو ما امتدت منه جوانب عبر مدرسة النبوة التي اهتدت بهديه واعتدت بسيرته فكانت صفاتهم بعضَ صفاته، وكانت أخلاقياتهم من مرجعيات أخلاقه وسلوكه ﷺ حيث يقف الشاعر عند شرف النسب النبوي وشرف من حوله من أصحابه الذين ساروا على هديه ومنواله فكانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم وكانوا زاهدين في جاه الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل كما تمتعوا بالعفة ونُبل الأخلاق اقتداء بسلوك رسولهم ﷺ.

ومن هنا كان تفرد الممدوح بما كان به جديرًا وكأنه نسيج وحده، فكان السبق والتميز قصرًا عليه دون سواه على غرار ما صوره مالك بن عوف وهو بصدد تصوير القائد والجند في أبياته المشهورة:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

في الناس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
ومتى تشا يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابه
بالمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله
وسط الهباءة خادر في مرصد(٢٦)

ولذا كان الخطب عظيمًا يوم وفاته ﷺ حتى التقت مدرستا مكة والمدينة في رثائه الذي ظل حسان فيه متفردًا أيضًا راثيًا، كما تفرد مادحًا ليقول:

وَجْهِي يقيكَ التُّربَ لَهْفِيَ ليتني
غُيِّبْتُ قبلك في بقيع الغرقد
بأبي وأمي من شهدت وفاته
في يوم الإثنين النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متبلدًا
متلددًا يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدٌ بالمدينة بينهم
يا ليتني أصبحت سم الأسود
أو حلَّ أمر الله فينا عاجلاً
في روحه من يومنا أو من غد

(٢٦) البداية والنهاية، ٣/ ٤٠٦.

وكأن الشاعر في زحام أحزانه وخضم دموعه الغزار قد نسي أن الرسول ﷺ قد أدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين لينعم بالانتقال إلى جوار ربه وليشفع عنه - سبحانه - لأمته يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.